شفيق حبيب

في

" تعاويذ من خزف "

الناقد الأستاذ / نور عامر

ربما نتساءلُ وبشيءٍ من الدَّهشة : لماذا انطلقَ الشاعر شفيق حبيب في ديوانه "تعاويذُ من خزف" من جوهر عقيدة كافكا : اليأس الميتافيزيقي؟

لماذا هذا الشعور بالضَّياع والإحباط؟

لماذا أغمضَ الشاعرُ عينيه حتى ابتراقِ اللحظاتِ الوَمْضِيَّةِ التي تمنحُنا دافعًا في أحلكِ الأوقات؟

لسنا في مجال تحقيقٍ حولَ موقفِ وأحاسيسِ الشاعر، ولكن قضية اليأس هذه قد تضعنا أمامَ سؤالٍ آخر: لماذا يسعى الإنسانُ في ظرفٍ مُعَيَّنٍ إلى تحطيمِ قدُراتِهِ المعْنوية؟

هل هي الرغبةُ في التحَرُّرِ من ضغوطٍ وتوتراتٍ داخليه؟

أم أن المسألةَ تدخلُ عَمْدًا أو اقتناعًا في إطارِ الرّومنطيقيةِ بمفهومِها الاستسلامي روحًا ومادة ؟!

ينسابُ في صوتي الضبابْ

وعلى شراعِ سفينتي...

في بحر ذاتي..

ينطوي أملُ الإيابْ..

الليلُ يلفظني...

فيجرعُني الضَّياعُ والاكتئابْ..

- من قصيدة "ضياعٌ في بحر الذات" -

هذا اليأسُ الميتافيزيقي بوجودهِ وخطرهِ يشكلُ غربةً قاسيةً، ويأخذُ شكلاً آخرَ في قصيدة "تعاويذُ من خزف" إذ نستشِفُّ اللذةَ في الألم، من خلالِ انصهارِ - الذات - "في سراديبِ الفناءِ الحيّ"، تلك القوةِ الجائرةِ الطاغيةِ التي تنتزعُ من الإنسان إرادته، وتبقيهِ جسدًا جافًا يطوفُ في دنيا الهمومِ دونَ أن يفكر بالنجاة، لأنه اعتاد واقعَهُ البائس، بل أصبحَ يستعذبُ هذا البؤسَ دون أن يُعلنَ عن ذلك صراحةً، لو واجَهْنا هذه الحالةَ "استعذابَ الألم" من مُنطلقِ عِلمِ النفس، لوجدناها حالةً شاذةً !! لكنّ الوضعَ قد يختلفُ في ظروفِ اللا اختيار.

أسافرُ فوقَ أجنحةٍ

منَ القصديرِ تقصيني..

وتغويني..

وأغرقُ في مياهِ البحرِ

في أحشاءِ تنين

وتقذفني همومُ الموْجِ

فوقَ رمالِ هذا العمرِ

أسمالاً على أشلاءِ مسكينِ...

في قصيدة "لم أجدْ قبري" يعي الشاعرُ مأساتهُ عقليًا، وهذا الوعيُ يتطوّرُ ويتغلغلُ في أعماق التصوُّرات، إنه يتحدّثُ عن عالمِهِ المحسوسِ من خلال حركةٍ ومرونة، ينتقلُ بين الذات وبين الموضوع عَبرَ الصورة الزمنية مُقصِرا إدراكهُ على الكيفيات التي تتساوقُ وتتلاقى في اللا مكان، فتشكل الشيءَ المُدرَك...

الشاعرُ إذن ينطلقُ في هذه القصيدة من "الأنا": يؤرِّقني... يُمزِّقني... أنا صدأٌ... أنا صدأ..."

فيجب أن لا نفهمَهُ خطأً لأنه بدون "الأنا" لم يكن في وُسعهِ إدراكُ الكيفيَّات " فالكيفيَّات " لا تعدو أن تكونَ إدراكاتٍ منتميةً "للأنا" ويمكنُ للأنا بواسطتها أن تتمثلَ الأشياءَ، كما نستنتج من ظاهريات الفِكر الهيجلي.

يؤرِّقني...

يمزِّقني...

جرادُ القمْعِ والقهرِ

ويحرقُ في شراييني

بقايا النبضِ في عمري

حملتُ حطامَ أوردتي

وأسلحتي على ظهري...

وجُبْتُ العالمَ المخصيَّ

أنزفُ مثلَ جَذعٍ

دامعِ الجذرِ

ولما عدتُ مكلومًا...

مهيضًا...

لم أجدْ قبري...

حين نتابعُ القصيدة نجدُ أن الشاعر يبرّرُ يأسه بشكل يقبلهُ المنطق، لكن هذا التصوير ليس فوتوغرافيًا، بل قدراتٌ تعبيريّة مدهشة تشكلُ جزءًا حيويًا من القصيدة.

قد تبدو هذه القدراتُ للعين سهلة ؛ فالنسْجِ الإبداعيّ لا يتيسّرُ لكل شاعر، وأعتقدُ أن الشاعريةَ الحَقة تتنوّع، ومنها الشاعريةُ القادرةُ على النفاذ إلى روح الأشياء كما سنرى الآن :

أنا صدأٌ.. أنا صدأٌ..

وصوتٌ غاضَ في لجّ

رُكامًا صارخَ النبرِ

رغيفُ الخبزِ من رملٍ

وماءُ النهرِ مأسونٌ

وأيامي مُحَنطةٌ

تنوءُ على لظى

الأوباءِ.. والصحراءِ.. والقفرِ

حَلمْتُ بألفِ سوسنةٍ..

وأقمارٍ..

وأكوابٍ منَ الخمْرِ..

حَلمْتُ بشهدِ أيامٍ..

يُبَدِّدُ حنظلَ الفقرِ

أفقتُ على مآسينا

فذابَ المُرُّ في المُرّ...

ويتابعُ شاعرُنا يأسَهُ المنبعثَ أساسًا من معاناته الداخلية عبر تصوراته المحسوسة، حتى يبدو لنا الواقعُ متعَبًا للغاية، وربما نحسّ في لحظة معيّنة أن الشاعر وضع هذه التصوّرات دون

تعقلها كما يفعل "كانتْ " وأتباعُهُ من التصوّريين لكنه مجرّد إحساس ينتج حين تغلق جميع الأبواب...

ونجد أنفسنا نتساءل: أيُعقلُ أن يكون الواقعُ قاتمًا ومخيفًا إلى هذا الحدّ ؟؟؟

وإذا كان لكل شيء نقيضهُ فلماذا تغاضى الشاعرُ عن مسألة التناقض الذي يصبحُ في مدلوله الإيجابي قيمةً جوهرية، وكأني بالشاعر يأخذ بقول " أرسطو " الذي شيَّدَ المنطق على قاعدة جذرية هي قانون عدم التناقض.

كلُّ ما فينا خواءٌ في خواءْ..

نتداعى...

حاضرًا يغرقُ في البؤسِ

وأوحالِ الرِّياءْ

نتهاوى مثلما تنهارُ

أحلامُ القوافي في خيالِ الشعَراءْ..

وفي مكان آخر يقول :

نحنُ كالديدان في الظلمةِ

تعشى عندما يبدو الضياءْ

نحن لا نبني حضاراتٍ

ولكن نتغنى بتسابيح الدُّعاءْ

نحن صحراءٌ.. وجَدْبٌ..

وظلامٌ.. وشقاءْ

فِكرُنا قحْط

كفيمِ الصّيْفِ منثورٌ

هباءً في هباءْ..

ـ من قصيدة : " خواءٌ وانشطار "

في هذه القصيدة نجد أنفسَنا في مواجهةٍ حقيقيةٍ لأفكارٍ لانستطيعُ أن نقولَ عنها مدمِّرة.. ما دامت مدعومةً في بعض جوانبها بالمحاجّةِ العقليّة التي تستند على الأدلة المنطقية، لكن الطريقة التي قولبت فيها هذه الأفكار تمسحُ عن الخارطة كلَّ الإنجازات العربية وكل التحدِّيات، على الصعيدين الفكري والسياسي!! ومن ثم تضع الإنسان العربيّ في دائرة الإحباط وشلّ القدرات، دون أية إشارة إلى الظروف والملابسات التي أوجدت هذا الواقعَ العربيّ الصعب.

نعرف أن الشعر غيرُ ملزم بتقديم أجوبةٍ عن أسئلة قد تدورُ في ذهن القارئ وهو يتابعُ نصًّا شعريًّا، لا سيّما وأن خيالَ الشاعر بجُموحهِ لا يهمّهُ البحثُ عن علة تكوينِ الأحداث.

لكن ما دام الحديث هنا يجري في معظمه عن حقائق، وتأثيرِ هذه الحقائق على الإنسان، تصبحُ مسألةُ العزف على وتر واحد قابلةً للرفضِ أو القبول، وقابلةً للنقاش الموضوعي، خاصة وأن موضوع الديوان في أكثره يتمحورُ حول قضايا تحمل طابعًا سياسيًا.

آهِ يا شعبَ الفراغِ
الضاربِ الأطنابَ فينا كالوَباءْ
كلُّ ما حولكَ من صُنعِ عقولِ الغرَباءْ
ما الذي أعطيتَ يا مشلولُ للدنيا
سوى ذُلكَ ممزوجًا بآهاتِ البُكاءْ
أنتَ مهزومٌ..
وللمهزومِ موتٌ.. وفناءْ..

لا يهمنا أن الشاعرَ جعل المأساةَ العربيةَ مُلهمَةً له على الإنتاج، فهو حرّ في اختيار نقطة الانطلاق، لكن ما يلفت النظر أن كثافة الأحداث ليست هي الشحنة الناقلة لبلورة الموقف، بل الشعور الوجداني هو السبب المباشر في اشتعال القصيدة.

يناديني...

يشدُّ على شراييني..

ويأخذني قشوراً..

جفّ منها النسغُ عِشقًا

ضاعَ بين الماءِ والطينِ

أرى في كلِّ محرقةٍ..

رجاءً هامَ عصفوراً..

على وجهِ الميادينِ..

يناديني منَ المجهول صوتٌ..

كانبعاث الويلِ

من أعطافِ سكينِ

أنا ورقٌ خريفيّ

تطايَرَ كاشتعال الريحِ

في أحضانِ تشرينِ

- من قصيدة "تعاويذ من خزف" -

وبعد....

لا أزعم أن هذا المقالَ يكفي لإعطاءِ هذه القصائد حقها من التقييم والتحليل، فهذا الديوانُ بمضمونِهِ الفكريّ والأدبيّ، يُشكلُ مادّةً خصبةً ورحبةً للكتابةِ الموضوعية.

من كتاب :

رحلة في أجواء الحروف ٢٠٠٠ (مداخلات نقدية)

جريدة كل العرب الناصراوية ٢-٥-١٩٩٧